بسم الله الرحمن الرحيم

# ٤٧ - سورة محمد ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدلالتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على القتال وكثرة فوائده ـ قاله المهايميّ ـ .

وهى مدنية . وحكى النسفيّ قولًا غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] ( ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ )

«ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» أى: جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره «وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ» أى : أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. « أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى ورشاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] ( وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ )

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم .

وقوله « وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ » أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بعطفه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله « وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ » أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ » أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح، ما كان منهم من الكفر والمعاصى، لرجوعهم عنها وتوبتهم «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» أى حالهم وشأنهم، وعملهم فى الدنيا بالتأييد والتوفيق.

قال الشهاب : ( البال ) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم، كقوله ﷺ[1] ( كل أمر ذى بال ) . ويكون بمعنى الخاطر القلبىّ، ويتجوز به عن القلب . ولو فسر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب خطبة النكاح ، حديث ١٨٩٤ ( طبعتنا ) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسره السفاقسىّ بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير[1] : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لايعرف منه فعل، ولا تكاد العرب تجمعه إلا فى ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : ( بالات ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ )

« ذَٰلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين مافعله كائن « بِأَنَّ ٱلَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشباه، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار . واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أوفى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ( فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ، وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ )

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فى قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملًا بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتمييزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة. ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب مافى حيزها من الأمر على ماقبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين مايليق به من الأحكام. أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم فى المحاربة ، فضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضرباً. فحذف الفعل، وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيد بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم ، فصاروا فى أيديكم أسرى « فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ » بفتح الواو ، وقرىء بكسرها . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيد والحبل . أى فأمسكوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سبعيّتهم ، وإما تفدون فداء ، فتطلقونهم بعوض مال، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايمىّ : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مر من قوله[1] ( مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال. ولم يذكر الاسترقاق، لأنه فى معنى استدامة الأسر، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية. ولا تزالوا كذلك « حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » أى: إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى. استعير لآلات الحرب التى لاتقوم إلا بها، استعارة تصريحية أو مكنية، بتشبيهها بإنسان يحمل حملًا على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخييلًا . وقد جاء ذكرها فى قول الأعشى[2] :

وأعددتَ للحرب أوزارَها : رماحاً طِوالًا وخيلًا ذُكُوراً

(١) [ ٨ / الأنفال / ٦٧ ] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التى مطلعها:

غَشِيتَ لِلَيْلَى بِلَيْلٍ خُدُورَا وَطَالَبْتَهَا ونذرتَ النُّذُورَا

يمدح بها هوذة بن علىّ الحنفىّ .

وقيل : أوزارها آثامها . يعني : حتى يترك أهل الحرب ـ وهم المشركون ـ شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول ـ قال في ( الإكليل ) : في الآية بيان كيفية الجهاد .

الثاني ـ للسلف قولان في أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّيّ أنها منسوخة بقوله تعالى [1] ( فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمر وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادىء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهي المطلقة .

ومدرك الثاني أن الأمر بقتلهم المجمل في آيات ، محمول على المفصل في مثل هذه الآية . أي إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصلحة في القتل ، فتلك من باب آخر .

وثم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافي جواز القتل ، لعلمه من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذي أختاره . وإذا دار الأمر في الآي بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذاهب إلى الإحكام ، لما قدمناه في مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين في النسخ .

(١) [ ٩ / التوبة / ٥ ] .



obeikandi.com

ثم رأيت ابن جرير [١] سبقنى فى ترجيح ذلك ، وعبارته :

والصواب من القول عندنا فى ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، أنه مالم يجز اجتماع حكميهما فى حال واحدة ، أوما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار فى المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً فى هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم فى آية أخرى ، وذلك قوله تعالى [٢] ( فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) الآية . بل ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً فى يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً ، ويفادى ببعض ، ويمن على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبى معيط ، وقد أتى به أسيراً . وقتل بنى قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا فى يده سلماً ، وهو على فدائهم والمنّ عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفىّ ، وهو أسير فى يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره فى أهل الحرب ، من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه فى هذه الآية المنّ والفداء فى الأسارى ، نخص ذكرهما فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه بذلك ، قد كان تقدم فى سائر آى تنزيله مكرراً ، فأعلَمَ نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر فى هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث ـ من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ، وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرائهم من غير تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبىّ صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم مشركون ، فتفهّم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٩ / التوبة / ٥ ] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يخيّر، بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة فى الأسراء المقاتلين ، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين ، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر ، فلم يجز له ترك ما فيه الحظ ، كولىّ اليتيم ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح فى بعض الأسرى . فإن منهم من له قوة ونكاية فى المسلمين ، فقتله أصلح . ومنهم الضعيف ذو المال الكثير ، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى فى المسلمين ، يرجى إسلامه ، فالمنّ عليه أولى . ومن ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه ، استرقاقه أصلح ـ كما فى ( شرح الإقناع ) ـ .

المرابع ـ تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة ، قطعاً لحجته . ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة ، لحديث[1] بُرَيْدَة بن الحُصَيْب قال : كان النبىّ ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوجيش، أمره بتقوى الله تعالى فى خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين . وقال : إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ـ رواه مسلم ـ .

وقيد الإمام ابن القيّم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصدهم المسلمون . أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة ، دفعاً عن نفوسهم وحريمهم وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدوّ، ونكايتهم وقربهم وبعدهم ـ كما فى ( شرح الإقناع ) ـ .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » خبر لمحذوف . أى الأمر ذلك . أو مفعول لمقدّر «وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ » أى : لانتقم منهم بعقوبة عاجلة ، وكفاكم ذلك كله. « وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ ( طبعتنا ) .

بَعْضَكُم بِبَعْضٍ » أى ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق . « وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ » أى استشهدوا . وقرئ ( قاتلوا ) « فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ( سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ )

[٦] ( وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ )

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى بيّنها لهم فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ )

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أى الظفر والتمكين فى الأرض ، وإرث ديار العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ )

[٩] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ )

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ » أى خزياً وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالكبّ . « وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » أى من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل . « فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا )

« أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذّبة رسلها ، الرادة نصائحها . « دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمّره بمعنى أهلكه . ودمّر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسياً منسيًّا ، فيتناول نفسه وكل ما يختص به . والإتيان بـ ( على ) لتضمنه معنى ( أطبق عليه ) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَـٰفِرِينَ » يعنى المكذّبين رسول الله ﷺ « أَمْثَـٰلُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ )

[١٢] ( إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ )

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ » أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ » أى غير مفكّرين فى المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ، فلا همّ لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم)

« وَكَأَيِّن » أى : وكم « مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبده على بصيرة منه. « كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ » أى فأراه إياه الشيطان حسنا ، فهو مقيم عليه. « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ، فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ)

« مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ » أى متغيّر الريح « وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

( مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ) مبتدأ خبره ( كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى: أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ، وإن كان فى صورة الإثبات ، هو فى معنى الإنكار والنفى ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : ( أَفَمَن كَانَ ... ) الخ، وليس فى اللفظ قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أعاريب أخر، هذا أمتنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ، أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ )

« وَمِنْهُم » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّن » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ » أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه من المتلوّ، وتهاوناً به « مَاذَا قَالَ ءَانِفًا » أى الساعة. هل فيه هدى؟ فإن بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً . « أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه « وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ » أى آراءهم ، لا مايدعو إليه البرهان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ )

« وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ » أى باتباع الحق ، والمشى مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بياناً لحقيقة ماجاءهم « وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بيّن لهم مايتقون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ )

« فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير : أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى(١) ( هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ) وكقوله جلت عظمته(٢) ( ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ) وقوله سبحانه وتعالى(٣) ( أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ) وقوله جل وعلا(٤) ( ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ) . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبىّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرىّ : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبىّ التوبة ، ونبىّ الملحمة ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى .

روى البخارىّ(٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا ـ بالوسطى والتى تليها ـ : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ » أى ذكرى ما قد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [ ٥٣ / النجم / ٥٦و٥٧ ] .
(٢) [ ٥٤ / القمر / ١ ] .
(٣) [ ١٦ / النحل / ١ ] .
(٤) [ ٢١ / الأنبياء / ١ ] .
(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٩ ـ باب قول النبىّ ﷺ ( بعثت أنا والساعة كهاتين ) حديث رقم ٢٠٦٨

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)

«فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ» قال ابن جرير[1]: أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغى أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله الذى هو خالق الخلق، ومالك كل شىء. يدين له بالربوبية كل ما دونه. والفاء فصيحة فى جواب شرط معلوم، مما مر من أول السورة إلى هنا، من حال الفريقين.

قال السيوطىّ: وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد فى العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات، المعرفةُ قبل الإقرار.

«وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» قال ابن جرير[2]: أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

قال الشهاب: وإنما أعيد الجار، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبىّ ﷺ، فإن ذنوبهم معاص كبائر وصغائر، وذنبه ترك الأَوْلى.

وقال السيوطىّ: استدل بالآية من أجاز الصغائر على الأنبياء. انتهى.

والمسألة مبسوطة بأقوالها، وما لها وما عليها فى (الفِصَل) لابن حزم. فارجع إليه.

وفى الصحيح[3] أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى، وإسرافى

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية).

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٨٠ ـ كتاب الدعوات، ٦٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ (اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤، عن أبى موسى الأشعرىّ.

فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطاياى وعمدى ، وكل ذلك عندى .

وفى الصحيح(١) أنه كان يقول فى آخر الصلاة : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى . أنت إلهى لا إله إلا أنت .

وفى الصحيح(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » أى متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ )

« وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أى تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار. « فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ » أى مبيّنة لا تقبل نسخاً ولا تأويلًا ، « وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ » أى الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى : شك فى الدين وضعف فى اليقين « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذى لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١ ـ باب التهجد بالليل ، حديث رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣ ـ باب استغفار النبىّ ﷺ فى اليوم والليلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبى هريرة .

« فَأَوْلَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعيّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أى : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولى ، بمعنى القرب. وقال أبو عليّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل ( أويل ) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فَعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و ( لهم ) خبره . وقد سمع فيه ( أولاة ) بتاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فُعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمى بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه ( أولاةٌ ) معرباً مرفوعاً ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون ( أولاة ) لفظاً آخر بمعناه ، فلا يرد شىء منه عليهم أصلًا ، كما جاء ( أوّل ) أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ ( قبل ) وسمع فيه ( أوّلة ) ـ كما نقله أبو حيان ـ فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى .

قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها ـ أنه مبتدأ ، و ( لهم ) خبره ، تقديره : فالهلاك لهم .

والثانى ـ أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أى أقرب وأدنى، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أى أولى وأحق بهم .

الثالث ـ أنه مبتدأ ، و ( لهم ) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و ( طاعة ) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى

[٢١] ( طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ )

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر ( أولى ) على ما تقدم .

الثانى ـ أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكىّ وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث ـ أنها مبتدأ ، و ( قول ) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرهما . وقدره مكىّ : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع ـ أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس ـ أن ( لهم ) خبر مقدم و ( طاعة ) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل ـ أفاده السمين ـ .

« فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله [1] تعالى ( إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتخلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلوجئتنى لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجبه « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَّهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأيًّا ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ )

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، وماجاء به رسوله « أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالتغاور والتناهب « وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ »

(١) [ ٣١ / لقمان / ١٧ ] .

أى تعودوا لما كنتم عليه فى جاهليتكم من التشتت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٣] ( أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ )

« أُوْلَـٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين « ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّـهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامّهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ » أى لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ( أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ )

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ » قال ابن جرير[1] : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى يعظهم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ماهم عليه مقيمون . « أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتنكير ( القلوب ) للإشعار بفرط جهالتها ونكرها ، كأنها مبهمة منكورة . و ( الأقفال ) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة ، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم » أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر « مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى » أى الحق بواضح الحجة .

« ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ » أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه « وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » أى ومدّ لهم فى الآمال والأمانى ، أو أمهلهم الله تعالى ، فمد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى : الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ )

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَالُوا۟ » أى المنافقون « لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ » أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ « سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ » أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى[1] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

---

(١) [ ٥٩ / الحشر / ١١ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ )

[٢٨] ( ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ )

« فَكَيْفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَٰرَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَٰلِكَ » أى التوفى الهائل « بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه ، « وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ )

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَن لَّن يُخْرِجَ » أى يظهر « ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله وللمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ )

[٣١] ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ )

« وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ » أى لعرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ » أى بعلامتهم التى نسمهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى ( الإكليل ) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانىّ : علمُ الله تعالى قسمان : سابقٌ على معلوماته إجمالًا فى لوح القضاء ، وتفصيلًا فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فمعنى ( حَتَّىٰ نَعْلَمَ ) حتى يظهر علمنا التفصيلىّ فى المظاهر الملكوتية والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ )

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تثمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ )

[٣٤] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ )

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ » أى لكن يعذبهم ويعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] ( فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ )

« فَلَا تَهِنُواْ » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم ، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ » أى الصلح والمسالة « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامنتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَٱللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره ماتمسكتم بحبله « وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ )

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد « وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ » أى ثواب إيمانكم وتقواكم « وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ » أى لأنه غنىّ عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

قال بعض المفسرين : أى لايسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لايسألكم الجميع ، أى : لايأخذه منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله ( يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ) أى يعطكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال ـ هذا ماقاله الشهاب ـ .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] ( إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ )

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويلح عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشرىّ : الإحفاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شىء . يقال ( أحفاه فى المسألة ) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و ( أحفى شاربه ) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ » أى أحقادكم ، وكراهتكم لدينٍ يذهب بأموالكم . وضمير ( يخرج ) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ ( يخرج ) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ، وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ، وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ، وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم )

« هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه ، ونصرة دينه « فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ » أى يمسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكلُّ شىء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ » أى بالذات إليه . فوصفُه بالغنى وصف لازم له ، ووصفُ الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لاينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيلَ من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير ، وفائدة وقربة ومثوبة . وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر ، وجزئيّه الأهم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه .

« وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلًا منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه .

« ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُمْ » أى لايبخلوا بما أُمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على مايؤمرون به .